محمد عبد اللطيف

معروض إلى ولي العهد!

مجموعة قصصية

40/04/24

محمد عبد اللطيف

معروض إلى ولي ّالعهد!

مجموعة قصصية

وجوه مقهى البنط

وجوه مقهى البنط

هذا المكان الذي يسعل عند خاصرة البحر، يتحول ليلا، يذوب صبابة تحت صوت أم كلثوم وهي تغني رق الحبيب، يتثاءب مللا عند الثالثة فجرا، ولا يغلق أبوابه أبدا.. إنه مكان بلا باب أصلا.

نتوء فوق مبنى شعبي، من تحته تتناثر خمسة مقاه تكاد تكون بلا أسماء، وفوقه سديم المعسل، دخان احتراق الرواد في خفوت، يشع حين يكتمل البدر، أو تلوح موجة ضوء قادمة من منارة الميناء التي لا تخبو أبدا.. مثله تماما.

حين أستيقظ في وهن الليل، أتنشق رطوبة جدة الربيعية... الربيعية في أمزجة السكان، وهدنة الأنواء التي ملّت من سلق هذه المدينة؛ أقود سيارتي بنعومة كأفعى فوق المطبات التي لا ترغمني الليموزينات الآن على قرعها بقسوة كما يحدث نهارا، أفيء إليه، فلا مكان آخر يروق لي حينما يكون هو الخيار الوحيد!

آخر الليل يكاد يخلو مقهى البنط من السائقين، أو "الكدادة" كما يسمّوْن هنا، يكاد يخلو أيضا من مسافري الترانزيت الذين يجرجرون حقائب الملل، يتمغطون في قرف، وهم يصلون رحلة الشتاء بالصيف، يكاد يخلو من لاعبي النرد الصلع، ومشاهدي كرة القدم البدناء، لكن غيمته تلك تشع سحرا كقنديل بحر في عتمة البحار.

أعرف وجوه الليليين هنا، إنها وجوه من جدة التي ماتت منذ كان شارع قابل نظير الشانزلزيه، ووجوه من جدة التي تأكل دجاج البيك كل ليلة، ووجوه من جدة يمانية العود، حجازية العينين، نجدية الأسنان، مكية الحشا.

وجه بلا إسم، خمسيني، حواجبه تتحرك لوحدها كماسحة زجاج، يتمعن الجميع بارتياب، يُسرّ إلي بما يقوله لكل أحد، حفظت رأيه في الرواد، باختصار "كلهم مباحث" لا يهم، من كان حسن السمت فهو رقيب، ومن كان متسخا فهو مقدم أو عقيد!

وجه نحيل، محفور الخدين كتمرة، يتحرك فكه الأسفل بشكل يعجز علم التشريح، يحمل اسما، يدعى "ثابت"، يطلب مني الإفصاح عن هواياتي، ثم يحلف برب البيت أن كل رواد البنط يتعاطون "الحبوب" يتحرش بأسناني وهو يحرّك فكه ويقول: "كل اللي هنا ملجلجين!" يحرك الخمسيني حاجبيه من بعيد، يضع إصبعيه فوق كتفه، أفهم من إشارته أن ثابتا ضابط في مكافحة المخدرات.

وجه آخر متغضن، سيء المزاج، قريب من الانخراط في مشاجرة لو تحدثت إليه، لو أشعلت سيجارة قرب "أرجيلته" أو حتى حين ينقطع صوت أم كلثوم فجأة، يحمل نزعة كلبية في نبح كل من يمر بقربه، عدا القطط التي تموء خلفه وتتمسح بنعليه على الدوام، قبل أن يختفي ماشيا في العتمة صوب سوق السمك، و يحمل أيضا اسما أو لقبا هو الآخر، يقال له "ملعون الوالدين" هذا ما يناديه به سرا ذلك الخمسيني ذو الحواجب.

وهنالك وجه آخر، ستيني مهندم في آخر الليل، شماغه المكوي وعقاله الليلي، ووجهه المثلث الطفولي الذي يبرز من تحت نظارتيه الدائريتين كعلامة مرسيدس، وجريدته اليومية التي يقرأها ليلا، وبَخْشيشه الذي يمنحه مكانا مهما في المقهى، هو أيضا يحمل اسما... يقال له مرعي، و كل ذلك لا يثير الغرابة في نفسي، لو لم يقل لي مرة كلمات مختصرة بعد أن تنبأت باسمه، قال وهو ينفث في ثوبه: لست أخاف منك ياعفريت... ولو حاولت أن تؤذيني سأحرقك! رغم أنها ليست نبؤة فاسمه كان بارزا من خلف جيبه الشفاف، في بطاقة عمل عليها شعار البلدية... اقتنع أنني جني، وحاول حرقي مرارا

بتعاويذه، قبل أن يستسلم ويقول: أعرف... أنت في مكانك.. هذا مقهى الجن!

وهنالك وجوه بلا ملامح، تنفث خمول الصيت ليلا، ووجوه مريحة تشعرك بالتيه، بالغربة؛ وهنالك مقهى البنط الذي يسعل عند خاصرة البحر.

وهنالك أيضا آخرون نهارا، لكنني في ظلمة الصباح أرى الخمسيني ذا الحواجب يتثاقل إلى المسجد مستغفرا، و لاحقا أرى ثابتا يَرُصّ الحاويات فوق أسطح السفن بتركيز تام، و"ملعون الوالدين" عائدا من سوق السمك يحمل قطع الأسماك ليطعم قطط البنط التي تنتظره كل صباح.

و مرعي الذي يشرف على مشروع المناطق الذكية في أمانة جدة!

حياة مفيدة لعم محمود

حياة مفيدة لعم محمود

لن يكون في مقدوري أن أكتب عن "عم محمود" ببساطة، فأنا ما زلت يافعا، وقد تعلمت منه أن لا أدوّن كل ما أعرفه، قال مرة: ياواد... إنت تكتب كتير... لما يخلص الِّ فدماغك وتقابل أحد أيش راح تقول له؟!

لكنني مضطر للكتابة عنه على كل حال، فهو يستحق بنظري؛ عدا أنها فرصة جيدة لهجاء الآخرين- تلك الرذيلة التي يدفنها كثيرون عميقا- وقد لا تظل حياته سرا، أريد أيضا أن أكون أول من يكتب عنه، لكي لا يساء فهمه على الأقل.

لهذا فاتحته، بالأمر، فقال: هههه أيش تكتب... حِكَم؟ أكتب الشيء ألِّ يفيد بس.

تلك الجملة كانت زجرا منه، لأنه يرى أن المفيد في حياته قليل؛ حقيقة أنا أشاطر "عم محمود" الرأي؛ لكنني أضيف أنه لم يقم به ليكون مفيدا لأحد.

لهذا سأدوّن نقاطا مهمة بعد كل فقرة غير مهمة.

فأن تساهم في بيع تلك الأشياء القديمة... وتكون قادرا على إكساب الأشياء الكاسدة سمعة وصيتا... وأن لا تحظى بعمولة لعقود تالية؛ ثم لا تيأس، لا ينقص حماسك، وبعد كل ذلك لا توفّق حتى هذه اللحظة، فأنت تشبه "عم محمود" كثيرا، إذا كنت على هذا الحال.

-يعني كل ذلك أنك رجل لا تصدأ! تلك هي النقطة الأولى.

هل تعتقد أن النجاح أمر حتمي؟ أتعتقد كالأغبياء أن من سار على الدرب وصل؟ أم تعتقد أن الفشل المتراكم يقود إلى النجاح؟

حسنا؛ ليس هنالك كتيّب لتعاليم الحياة، إن نجحت هذه المرة، فلو قدر لك أن تعيش حياة أخرى، وقمت بنفس الخطوات لن تنجح على الأرجح! أتحسب أن الحياة فيلم معاد؟

هذا ما لا يدّعي فهمه إلا هو وحده، ضمن جيله الذي انطلق من حوله كالسهام، تسلقا لقامة المجد الفارعة، وتصعّدا في سماء الشهرة، ورقيّا في فضاء الثراء؛ أو حتى بعض مجايليه الذين عاشوا في عباءة الكفاف، وتمتعوا بشهوات البنين والأزواج، واقتنصوا عدة سفرات صيفية عابرة.

"عم محمود" وحده، من إذا الْتقيت به أُدرك بعض الحقائق التافهة عن هذه الميلودراما الكبرى التي يسمونها الحياة.

-حان وقت تدوين النقطة الثانية: إذا جاوبت بالإيجاب على الأسئلة -أعلاه- التي لا أعرف من وضعها، فأنت تستخف بالحياة.

قبل ثلث قرن قّدّم "عم محمود" عرضه الأبْهى، كانت هنالك على ضفاف واد خصيب مبان مهيبة، تشكل جزءاً من قصر منيف، تسوّره البساتين؛ عرَضه الوارثون للبيع، أوكلوا أمر بيعه إلى الشاب محمود صديق الطفولة، وانطلقوا إلى بلاد العم سام.

لم يستطع أي سمسار عقار أن يجلب عرضا جادا، بعد عام؛ قرّر أن يدخل ذلك الميدان، لقد أوحى إليه ملاك العقار ببعض التعليمات، كان أبرزها أنّ هذا العقار الضخم أكبر من هذه السوق الصغيرة التي لا تحتاجه؛ فانطلق خارج حدود المدينة، إلى المدن الشهباء الهائلة، تلك المهترئة، منفوخة الجيب و الضرع مثقوبة القلب والنفس، تلك التي

يموت الشحاذون كمدا في أزقتها الخلفية، وتنموا أشجار الصفصاف تحرشا أمام بواباتها المذهّبة.

وجد ضالته، وباع القصر والمزرعة، حصل على عمولة عاش عليها العقد التالي بأكمله؛ لكنه منذ تلك اللحظة لم يحقق أي عائد تقريبا في عالم العقار، رغم أنه ظل شاغله الرئيس، ليله ونهاره.

الآن، يمتلك "عم محمود" الخبرة، المعرفة الدقيقة، والوقت الوفير، لكنه لا ينجح.
يمتلك الفقر، العوز، والصحة المهتزة، لكنه لا ييأس.

لن أصدق أبدا أنه حصل على السعادة، أو أنه أكثر جيله سعادة كما يزعم، لكنني أراه يعيشها ملء السمع والبصر!

-سأدون هذه النقطة، فهي شديدة الأهمية: المنشغلون لا يأبهون لتقييمك... والحياة أيضا لا تكافئهم بناء على ذلك التقييم!

حدثته عن الدجالين الذين يخطّون للناس سيرهم نحو النجاح والسعادة، ضحك، قهقه، حتى تطايرت حبات الرمان سيئة المضغ من فمه، ثم قال: يعني!
قلت: يعني.. أيش؟. هزَأ بي كثيرا بعينيه وشدقيه، مط شفتيه في مرح، بعثرني بهزئه وقال: يعني... النجاح والسعادة أيش دخلهم في بعض الله يهديك؟
تنبّهت؛ اللعنة عليك يا كارنيجي وزيج زجلر؛ بالفعل، لا علاقة بينهما إطلاقا!
أدرجت تلك المعلومة في ذهني، بأسلوب تشفير متقدم، لكن العم محمودا لا يمنح التفاصيل، هو في الحياة كالنّفري للمتصوفة، صاحب مقولات وتحويمات.
-لذلك سأتجاوز هذه النقطة، فقد نسيتها بفعل إحكام التشفير.

رغم كل ذلك يعتبره أبناء جيله أيقونة الفشل الكبرى. هاجس أولئك النجاح، أما هو فلا هاجس له، مازال ينقّب أديم الحياة، بحثا عن شيء لا يتحسر عليه كثيرا، لكنه يحب ذلك التنقيب فقط.

جل ما يفخر به في حياته، هو بيعه ذلك القصر قبل عقود ثلاثة؛ وكثيرا ما يحمل صندوق المعسل أيام الجمع، ويتفيأ حائط القصر الذي أصبح شامخا، يبترد من فوح بساتينه عصرا، ويسحب من تلك الأرجيلة طعم مجده القديم، وحيدا، أو برفقة صعلوك جديد.

-هذه النقطة يجب ذكرها: الزمن ليس شريرا "بالمرة"، فهو لا يسلب الأشياء التامة رونقها، إنّه فقط يمحو الأشياء الناقصة.

لا أستطيع زجر قلمي عن الولوغ في خصوصيات "عم محمود" إنّها مثيرة، وهو لا يبذل جهدا كبيرا في سترها؛ إنّه يتمع بعائلة رائعة، إخوة لا يزورونه إلا كل عيد، وأخوات وقعت قلوبهن في جيب طائر الحب ولَهاً بأزواجهن.

كل ذلك من وجهة نظره هو أيضا، إنّه يجد الأمر جيدا، فهم يمنحونه الفرصة للشوق والإحساس بنعمائهم، حين يجيئونه كل عيد.

أما ما تبقى من عامه فهو ملك له وحده، يقول: الواحد من بدري يتعود على الوحدة قبل القبر. ثم يقهقه حتى تختلط الكحة بنكهة المعسل الزغلول.

أرجوا ان أكون قد وفقت في هذه المحاولة يا "عم محمود" وكتبت شيئا مفيدا، رغم أنك لا ترى أن ثمة أشياء مفيدة للآخر، هي مفيدة لك أنت فحسب.
-هذه هي النقطة الأخيرة: توقّف عن الاتعاظ بالآخرين أو استجداء النفع من حياتهم... جرّب، حياتك ليست خشبة مسرح.

ضياع بجباجة

ضياع بجباجة

1

العالم منشغل في شؤونه، هذه البلدة ليست استثناء، لا أحد يعاني من الفراغ رغم مساحة الصمت الهائلة وضآلة الانشغال.

بدّه في كوخ صغير يشبه البيدر، وقد أحكم غلق الباب جيدا مخافة تسلل حمل وليد احتجزه جانبه وعجل أحمر شبه نائم، تعالى طرقه بالهاون على مجلّدة من الاعلاف المتكلسة، عجبا، حتى هذه الأعلاف اليابسة والمجلوبة من آخر العالم مازالت تحتفظ بلونها العشبي حين تنقع في الماء، تبرز ألوانها الخريفية خضراء رغم الشتاء والتعبئة السيئة، تماما كما تتسرب بشرية بدّه من تحت أغلفته السميكة، لتطفو على وجهه المكدود ليلاً حين يستلقي على كثيب أبيض ويشرع في الذكر القادري بعد نهار مترب.

كلّما ازداد ركام الأعلاف المهشم حوله زاد حماسه، وامتقع وجهه، ثم وشت عوارضه بنزق روحه حين تحتدّ عروق جبهته، تتصالب حبالا، ويصبح وجهه الستيني قطعة جمر، ولحيته الرقيقة المشذبة كخيط دانتيل أبيض كما لو كانت نمنمة على سجادة مهملة .

بدّه يمتلك في مخزنه ذاك أطنانا من الأعلاف اليابسة، جلبها منذ انصرام الخريف بما تبقى لديه من مال وذلك لمدّ بقرته الوحيدة بجباجة بالغذاء طوال أشهر الجدب القادمة .

منذ أسابيع قليلة ولدت بجباجة عجلا أحمر بالكامل، وتدلى ضرعها المورد بالأوعية الحليبية، وانهمرت سحائب الحليب الأربع دفاقة، فهي بجباجة كما كانت دائما، غزيرة الضرع، جيدة الطبع .

لكن الكارثة حلت منذ ثلاثة أيام فقط، مساء وحين الرواح لم تعد بجباجة إلى عجلها الأحمر !

انخرط في بحث مجنون رفقة أغلب رجال البلدة، فهذا حدث مقلق، لم يسبق أن أخلفت بقرة موعدها المسائي مع وليدها .

وأكثر مايقلق بدّه ورجال البلدة أن تكون بجباجة وقعت في حبال لصوص الأبقار، إن رجلا يحمل حبلا في الفلاة قادر على إثارة مخاوف هذه البلدة بكاملها .

كان البحث شاملا، تم تفتيش التامورت و أم لفْلج وسهل التازوّة و ملازم ولد افيطمتو وغيرها .

هذا الصباح عاد كسير النفس، لم يحدّث أحدا، و انخرط في تكسير الأعلاف في منعزله الضيق، ابتلعه الإحساس بالذنب، فلو أمدّ بجباجة بهذه الأعلاف لما رحلت!

خبر صغير جيد لم يهدهد روحه كثيرا، فالعجل الذي كانت ترضعه ابنة بدّه الوحيدة بالحليب الصناعي في رضّاعة زجاجية بدأ التهام الأعلاف المنقوعة في شهية ثور.

طرق بابه ضيف مزعج: افتح الباب أيها الحزين، قم، قم، هنالك أخبار عن بجباجة!

امتشق بدّه كالسيف، وتسوّر عقوده الستة في حماس، تثاقلت أنّةُ الباب الزنكي حين أطلّ عجوز قائلا: هيا... على الشارع العام هناك رجل قادم من تَلَلْبَ يحمل أخبارا عن بجباجة.

انطلق بدّه على عجل، ناسيا باب البيدر غير مؤمن .

2

الشارع العام هو خيط اتصال هذه البلدة بالعالم، تمر به وحدات من السيارات يتوقف بعضها لإنزال راكب أو لمجرد التوقف، لكن أكثرها يشق هدوء البلدة بغباره وعويله ويمضي بعيدا .

على ذلك الشارع الرمادي المهترئ تتناثر دكاكين آيلة للإفلاس، لكنها تخلب ألباب القادمين من تيه الوهاد الشمالية، وحين تشكّل أول صدمة مدنية لبعض أولئك، فإنها تشكل خيبة أمل لأكثر العابرين.

وقف بدّه ورفيقه بين الرجال المتجمهرين أمام متجر الحوائج المختلفة، وبادره كهل آخر: أيْوَ بجباجه شافها حد!

ولدت أول بسمة على شفة بدّه منذ تيتّم عجله؛ أكمل الكهل: مؤسف جدا، ومحير ما حصل! فغر بدّه فمه فأكمل: أحدهم رأى رأس بجباجة الاحمر ملقيا في التامورت! أصبح لون وجه بدّه مزيجا من لون بجباجه ولون روثها، فتناوب الرجال على العزاء ولعن أصحاب الحبال.

لا يعرف بدّه أين قادته رجلاه لاحقا، حتى توقّف أمام طاولة جزار القرية، ألقى نظرة سيئة على جسد البقرة الممددة على طاولته، طالع وجه البائع بتقزّز، ولفتَ انتباهه رد الجزار على زبون: كلا، لايوجد لدينا اليوم لحم عجل... غدا سنذبح عجلا!

تنبه، ارتبك، وسحب بدنه الحزين إلى وجهة أخرى .

عائدا إلى بيته يجرجر ذيل الحيرة كان ينظر بطرف تعاسته إلى أبقار الأهالي، تلسعه شياطين الأبقار: هناك من يمتلكون مئة بقرة.. لذلك هم سادة !

عند وصوله لمنزله فاجأه المشهد، بيدره الصغير مفتوح الباب، تسده مؤخرة بقرة سادرة في التهام أعلافه.. مهلا هذه المؤخرة السوداء مألوفة.. أصبح وجهه بلون خضرة الأعلاف المبللة.. مهلا أسفل البقرة هنالك عجل يرضع .

بجباجة.. صرخ بدّه بلوعة!

عادت بجباجة... عادت .

قفز من فوقها بخفة جدْي ولطف فراشة، تعالى مطرقه تهشيما للأعلاف وبجباجة تأكل كل مايهشم .

لم يدر حديث كبير، ولم تقدم البقرة عذرا، لكن بدّه رفع صوته بالهيللة القادرية في لحن حزين، وانبعثت روحه الخضراء واجتاحت وجهه المتقلب.. حدث ذلك لوجهه نهارا.. لأول مرة.

ميل مولوفيتا الأخضر

ميل مولوفيتا الأخضر

كل صباح يعيش مولوفيتا في الظلمة تحضيراته المدنية ذاتها، منذ أعوام؛ يستحمّ في السّحر، سواء كان الفصل صيفا تهبط فيه المياه الفاترة كأنّما نسيَ أحدهم سخان الماء (مشغلا) طوال الليل، أو كان شتاء فتجيء المياه كأنما هي مخفوقة بالثلج كعصير السلاش.

تختفي سحنة ذقنه الخلاسية تحت طبقة من رغوة الحلاقة، عدا شاربه المدبّب كشارب سلفادور دالي، فيمسح ناشئة الشعر الأبيض بموسى الحلاقة فتبدو نتف الشعر الدقيقة كخيوط مجهرية في الماء حين يغسل ذلك الموسى.

يرتدي بدلته التي يحرص على أن تكون مرتّبة بجانب سرير نومه، يشدّ ربطة عنقه على طريقة لي كول الميلانية، ويشد رباط حذائه الإيطالي الذي يظهر دائما كأثمن قطعة في هندامه.. رغم قدمه.

يرشّ قليلا في الهواء من عطره المركّز، ويقف تحت تلك السحابة العطرية الهابطة، هكذا يضمن مولوفيتا أن بصلات شعره الخمسينية لن تفقد لونها البني كما حدث مع ذقنه بسبب ماء الكولونيا.

يصطحب كتابا باللغة الأمهرية، وآخر بالإيطالية، وملفّا جلديا أحمر يحمل مستندات تيهه الكبير.

منذ عرفته في جدة قبل سنوات وهو على هذه الحال، لايشوب حياته تغيير، ولا ينثني قيد أنملة عن حلمه في الهجرة إلى إيطاليا تحديداً!

يتّجه إلى مقهى أدّيس على معدة خاوية، وهناك يعرف النادل كل مايطلب، فهو معروف ويدعى هنا وعند كل معارفه مولو تودّدا، يناوله

النادل قطعة من خبز (الحمباشة) و كوب ماء وقهوة (يجبنا بنا) الأثيوبية المركّزة.

أياما محدّدة في الأسبوع يتّجه إلى ذلك المبنى الخرب كفيللا صقلية محطّمة النوافذ، تتسلّق بقايا الشمع زواياه تحت حماية خيوط العنكوبت، على ناصية شارع خالد بن الوليد، في الملتقى البائس لحيين من أقدم أحياء جدة، حين تفيض البغدادية الشرقية زفرتها الأخيرة من الغربان و الأفارقة، لتصدم بفيضان الشرفية من الجرذان والهنود.

لكنّه لا يشعر بتلك التعاسة التي تقبع فيها قنصلية (إيطاليا العظيمة)! لأنّه قادم من حي الكرنتينا الأكثر فقرا؛ يقرع حجرة الاستفسار فيطل موظف القنصلية الإيطالية الهندي، يناوله الموظّف نسخة من صحيفة لاريبوبليكا ويخاطبه بعربية أُممية: مولو.. لسّه مايجي خبر!

لايحدث ذلك الجواب المعتاد تغييرا في مزاجه؛ فهو معتاد منذ عقود عجاف على جفاء الطليان، غير أنّه لا يملّ و لا يستكين.

بالكاد عرفتُ قصّته، فهو قليل الحديث، منهمك في قراءة صحفه وكتبه، أو تلميع نظارتيه؛ لكن الجميع في مقهى أدّيس بالكرنتينا ينادونه: مولو الإيطالي.

لم أكن متأكّدا يوما مما يقال، لكنّه يقدّم سببا مقبولا لإصراره، فالأحباش اللطفاء هنا يقولون إن مولوفيتا ينحدر من نسل جنرال إيطالي كان يحكم منطقة (بني شنقول-قماز) ، وأن والده مرّر إليه رغبته الأخيرة قبل موته في العثور على عائلته الأصلية.

لكنّ كل مايحمله من وثائق، وشهادات عرفية من أعيان منطقته، لم تقنع قنصلية إيطاليا يوما لتمنحه تأشيرة دخول بغرض البحث عن جذوره.

لكنّ مولوفيتا حسبما يقال تمكّن أخيرا من التواصل مع محام في إيطاليا ورفع عدة قضايا في المحاكم الإيطالية، خسر بعضها حتى الآن على التوالي.

لم يغيّر كل ذلك شيئا، مازال يعيش نمط حياة الرجل الأوروبي الاستعماري المتقاعد، يتناول قهوته ضحى، يطالع صحيفة لاريبوبليكا وإن كانت قديمة، ويحكّ أنفه بمنديل قطني.

قرّرتُ أخيرا، أن أتأكّد من قصته، فأنا في النهاية حجازي يحبّ (اللّت)، واعتمادا على معرفتي به منذ سنوات، وما قدّمته إليه من جميل قبل عام، حين أرشدته إلى سوق الكرنتينا الليلي، ذلك السوق الذي لايعرفه من أهل جدة إلا القلة، ويباع فيه كلّ ماهو مهرّب من (المينا) دون جمركة.. أو عن قصد، ليبتاع منه حذاءه ذاك؛ اعتمادا على تلك الألفة في مقهى أدّيس سألته: مولو.. هل صحيح أنك إيطالي؟!... مرّت سحابة ثقيلة من الصمت، حتى تذكّرت انحباس الهواء في تلك الليلة المشؤومة التي غرقت فيها جدة قبل سنوات، وتغضنّ وجهه حتى أصبح كمؤخرة غوريللا وقال:

أنت.. هل أنت موريتاني؟ حمحمتُ قليلا وقلت: أجل.

حمحم أيضا وقال: موريتانيا اسم روماني، وشعوب موريتانيا في الأساس هم من الوندال، والوندال عبيد إيطاليا المارقين.

قلت مسترسلا: وعطيل أيضا موريتاني ويسمى معطى الله! وضع نظارته جانبا وأكمل:

العالم بهذا المعنى إيطالي كله!

قلت: هل ستصل إلى وجهتك قريبا؟ امتعض من أسئلتي المباشرة وأجاب باقتضاب:
أنا أتمتّع الآن بالسير في الميل الأخير، ميلي الأخضر.

عاد إلى جريدته كأنني غادرت المكان، جاء شاب أثيوبي آخر يرتدي نظارات مقعرة ، وقد سمع حديثنا فجلس بخفة وقال ضاحكا: مولو ماعنده روح الوحدة الإفريقية!

لم يعرف أحد بعد ذلك ماحدث، فمنذ أسابيع اختفى مولوفيتا فجأة، ابتلعته جدة، أو بحرها الساجي، لكنه كان حتى آخر يوم ظهر فيه في مقهى أديس رجلا إيطاليا كلاسيكيا.

وكان يعيش حياته على تلك الشاكلة لأعوام، ولاشك أنّه الآن يعيشها على نفس الهيئة.

قرّر أحدهم بدافع إنساني أن يطمئن رواد المقهى، فذهب إلى تلك الفيللا المهترئة، سأل الموظف الهندي في القنصلية الإيطالية: متى راجعكم مولوفيتا آخر مرة؟
نظر الموظف الهندي إليه وقال: مولوفيتا.. إنت معلوم فين مكان؟ فيزا حقو جاهز!

فرح الجميع لصدور تأشيرة إيطالية لمولوفيتا المسكين، لكن أين هو؟ أين مولوفيتا؟ أين ذلك الرجل الذي تبين للمحاكم الإيطالية أنّه إيطالي أخيرا.

قد تكون رحلته الآن متصلة في منحى آخر، قد يكون في عنبر الترحيل بجوازات الكندرة، أو في سجن بريمان، قد يكون جثة هامدة في زقاق

خلفي في منطقة السوق الليلي بالكرنتينا، وقد يكون ببساطة غير موجود في أي مكان يرفض التواجد فيه.

أودّ أن أعثر على مولوفيتا لأخبره أنه كان بالفعل في ميله الأخضر، و أن الجميع في مقهى أديس اقتنعوا أنه إيطالي!

زواج غير مالكي

زواج غير مالكي

منذ أسابيع ونحن في متاعب هذا العرس؛ لكن لا يحق لنا كزملاء عمل أن نتنازل عن زميلنا مراد في هذه الأوقات الحرجة، قصارى ما كان في جهدي كمشرف في قسم أبحاث التكنولوجيا الميمية في هذه الشركة أن أمنحه إجازة لأسبوع آخر، عسى أن تجري الأمور على خير، كما أكّد لي مراد، ليتم عقد قرانه على سعدنا حبيبه!

يصعب أن تجد في نواكشوط هذه الأيام صالة أفراح شاغرة، فالبلاد تحتفل بالذكرى العاشرة لاعتلاء الملك محمد الثاني لعرش والده بدر الأول؛ فجميع الشركات والإدارات الحكومية تنظم احتفالات خاصة بهذه المناسبة العزيزة.

كمواطن يشعر بالسعادة لما حقّقته بلاده من رخاء خلال العقود الثلاثة الأخيرة، لا ينقص سعادتي سوى اكتمال أفراح صديقي المهندس مراد وخطيبته الأستاذ سعدنا، والاحتفال في قسمنا بالنهاية السعيدة؛ لا شك أن زواجهما حوّل شركتنا من جهة تكنلوجية بحثية جادة إلى ما يشبه "صالون حنّة" بجانب أبراج مرصة لكبيد الشعبية.

فالزّملاء يتأخّرون على الدوام بأعذار واهية، من قبيل انتظارهم لأوقات طويلة كي ينهو نقوش الحناء الخاصة بهم، أو اضطرارهم للبقاء طويلا في السّرير تحت درجة حرارة معيّنة لاكتمال تعميم سائل الكيراتين على أقدامهم المتعبة من طول الجلوس، وتطرية أظافرهم، وتغلغل حقن الكولاجين في مسامات وجوه المتقدمين في العمر منهم؛ أما الزّميلات فهنّ منشغلات بتلميع سياراتهنّ، و شراء الأعيرة النّارية التي سيطلقنها احتفالا أمام باب المحكمة بعد إعلان عقد القران.

طبعا؛ كل ذلك مردّه لما يتمتع به العروسان من قبول لدى غالبية الموظفّين من جهة، تقديرا لعشقهما الكبير الذي بدأ صاخبا حين التقيا في أمسية شاعرية على ضفاف المحيط، بعد أن أنقذ المهندس مراد الأستاذ سعدنا من يد عصابة من "الفيمنست" اللواتي اعتدن على خطف رهائن من الجنس الثالث وحرقهم- أو حرقهن- احتجاجا على التمييز الإيجابي الذي تمارسه الدولة لصالح الجنس الثالث، منذ أن أعلن الملك محمد الثاني قبل سنوات قانونه التقدّمي الشّهير لحماية الجنس الثالث كحلّ مصيري للخروج من إشكالية الذكر والأنثى الرجعية.

وقَع سعدنا في حالة غرامية شبيهة بأعراض عقدة المخلص، أو هذا ماكان الزّملاء يتوقّعونه، لكن الأيام والزمالة في شركة واحدة حطّمت كل أشكال التخرّص، وأصبحنا متأكدين تماما أنهما في حالة عشق حقيقي.

قبل يومين أوشك كل شيء على الانتهاء، وأوشكت السيدات المنتظرات أمام المحكمة في سياراتهن ذوات الدفع الرباعي أن يطلقن مصفوفة الأعيرة الحمر الصارخة من بنادقهن ومسدساتهن؛ لو لم يقتحم المحكمة رجل قصير يقود موكبا من أهل البادية!

كان القاضي الفاضل على وشك قراءة الفاتحة وإتمام العقد، حين استدعى والدة سعدنا وأوقفها عن يمينه ومن خلفها وقف والده الوديع، وعن يسار القاضي أوقف والدة العريس وجدّته، بينما كان مراد في المنتصف ممسكا بيد الاستاذ سعدنا الناعمة، والمرتجفة لشدّة الفرح؛ لكنّ كل ذلك توقّف حين دهم المحكمة الموقّرة ذلك الرجل القصير صائحا ومن خلفه البداة الهمج بكلمة واحدة: هذا العقد باطل!

دهش الجمع الغفير، واحمرّت وجنة أم العروس سعدنا خجلا، فقد رأت ابن عمها القادم من البادية يصرخ بصوته العورة في بلاط المحكمة الموقرة، والأدهى: صراخ أبناء عمها من خلفه جهارا دون حياء.

سأل القاضي في انزعاج: من أنت؟

أجاب الرجل القصيرباعتزاز: أنا ابن عم سعدنا، وهذا العقد باطل شرعا لأنّه يخالف مدوّنة الأحوال الشخصية الموريتانية، والتي تنص –وفقا للفقه المالكي- على ضرورة تكافؤ الأنساب في النّكاح؛ إنّ العريس مراد شخص بلا قبيلة ومجهول النّسب، كما أن العروس ابن عمّنا سعدنا هو ابن عائلة عريقة و أمّه شخصية معروفة تنتمي لقبيلة كبيرة..وجدته كذلك.

بُهت القاضي الذي سأل المهندس مراد: من أي القبائل أنت يا ولدي؟ سعل مراد، وأجاب في ارتباك: نحن عائلة حضرية من أهل نواكشوط وأبي كان موظّفا محترما.

أبي!..أبي! تردّدت في القاعة بسخرية، وتوارى بعض الحاضرين خجلا؛ نظر القاضي في ساعته وقال: في هذه الحالة المدوّنة واضحة جدا يا ولدي، سأضطر إلى تأجيل العقد إلى جلسة الغد حتى تتأكّد المحكمة من نسبك؛ اعذرني يا ولدي النّصوص جليّة وقد تعبت من هذه المسألة، نحن ندعم العفاف ولكن على أهل نواكشوط أن يتزوّجوا من أهل نواكشوط...ححح موعدنا غدا.

تفرّق الجميع في هدوء، بينما رمق الرجل القصير سعدنا بنظرة غامضة؛ نمّت عن مشاعر انتصار دافئة.

ثارت الشائعات عن ابن عم سعدنا الذي يحاول منذ مدة طويلة الزواج به وأخذه إلى الرّيف.

لكننا هذا الصّباح تأكّدنا أن سعدنا ممسوس بعمل سفلي لا يمكنه أن يحقّق أي نجاح قبل فكّه، فقد اشتعل المحرّك الأيوني في مكتبه دون أسباب، ذلك المحرّك الذي يساعده في تسريع جزيئات المغناطيس

في وحدات المعالجة المركزية التي يعكف على تطويرها، حدث ذلك أثناء غياب الجميع لحضور جلسة عقد قرانه.

منذ أمس وهو يحاول الاتصال بالشيخ بطاح المتخصّص في فك الطلاسم و عُقد النحس الموروثة من قرون السحر البائدة؛ لكنّ هاتفه العضوي لا يردّ، ربّما تخلص منه مؤقتا في هذه اللحظة، كما يتخلّص من جسده دائما حين يكون في حالة إسقاط نجمي معتادة.

ستكون آخر جلسة، هذا ما أكّده العروسان للزملاء؛ إذاً لم يعد في وسعي – أخلاقيا- منع الزملاء من حضور جلسة أخيرة لإسعاد هذين الإلفين الجميلين.

لكنّ النحس مازال مستمرا، فقد فوجئ الجميع عند حضور الجلسة أن القاضي المحترم تمّت إقالته من عمله هذا الصباح، ومنعه من الحكم نهائيا؛ بسبب ضبطه من قبل هيئة الرّقابة ليلة البارحة وهو يرتدي بدلة رياضة وينزّه كلبا في منتزه الملك محمد الأول البري على طريق اكجوجت القديم.

لم يستغرب أحد، خاصة حين أوضح القاضي الجديد حيثيات الإقالة، فالفقه المالكي ينصّ صراحة على عدم أهلية من يربّي الكلاب للشّهادة..أحرى بالحكم بين الناس.

لكنّ الكارثة حلّت، فقد حكم القاضي الجديد بعدم جواز عقد قران مراد وسعدنا لعدم التكافؤ.

لم يبقى من حل إلا اللجوء إلى خطوة واحدة حقيرة، اقترحها أحد الزملاء عن طريق الدائرة السيكونية التواصلية المغلقة للموظفين في شركتنا.

على الاستاذ سعدنا التّظاهر أمام المحكمة بأنّه عريس بينما يدّعي المهندس مراد أنه عروس؛ وهذا سيمكّن المحكمة من عقد القران، لأن التكافؤ لا يعمل به في هذه الحالة، فالأهم هو وضع العريس القانوني – حسب النصوص الصريحة في الفقه المالكي- وسعدنا لائق نسبا للزواج بأي رجل، حتى ولو كان من سكان نواكشوط.

إنّها فكرة خبيثة، ولا أخلاقية البتة، إضافة إلى احتيالها الصريح على الفقه المالكي؛ هذا ما قاله الجميع، ويبدو أن صورة عشقهما الطاهر ستتحطم حين يلجآن إليها.

لكنّها الحل الوحيد الذي لا يدينه الفقه المالكي.

معروض إلى ولي العهد

معروض إلى وليّ العهد

علي ممتاز ليس أقل حيلة من الأصحّاء، كل أزماته جعلت منه رجلا لا يكلّ ولا يملّ من طرق الأبواب؛ ولد بقصور عقْلي، تفاقم مع الأيام، الديسليكسيا (عسر القراءة) المزمنة لم تكن عائقه الوحيد في القراءة، تبين جليا أنه طفل أبله باختصار فتم صرفه من السنة الأولى، تفاقمت الصعوبات العقلية لاحقا ليظهر كمعتل حقيقي، وحين اصيب بتصلبات عصبية في مراهقته تم تعميده بشكل نهائي كأبله.

أمّه اعتادت على الأمر حين جاء إخوته وأخواته على شاكلته، ولد آخر، بنت، فأخرى، أصبحوا أربعة لا يجيدون القيام بشيء، إضافة إلى شلل الأطفال الذي اعتامهم فنجا منه علي بأعجوبة.

حين ولد للعائلة طفل سليم من العاهة بعد توقّف لسنوات عن الانجاب شعرت بالأمل، من الواضح أن الوليد صحيح تماما، لا يسيل لعابه، يبكي كثيرا، ويظهر نهما منقطع النظير.

زاد الأمر من حماس الأب فاستأنف تنشيط خط الإنتاج، طفل آخر سليم؛ لكن الأب لم يتمتع كثيرا بإنجازه فقد باغته الموت.

علي ممتاز صديقي الذي أصحبه نادرا أصبح الآن رجلا، في عقده الرابع يعيل جوقة البله في منزله على علاّته، بعد إخفاق أخويه الصغيرين في تحمل المسؤولية، الأصغر تزوج ونزح بعيدا، والأكبر منه مدمن على العرق لا يصحو.

ذهبتُ صحبة علي ممتاز إلى معلم لغة عربية وقلتُ له:

- سيكتب لك هذا الأستاذ معروضا جيدا لولي العهد بعشرين ريالا.

- أوه أمد الا، لكن لو حصلت على ٦٠٠ ريال لذهبتُ إلى سمير آدم، أمد الا.. سمير معاريضه لا ترفض.

- يا علي دعك من ذلك العجوز النصاب، جرّب هذا الاستاذ.

- أوه، أمد الا، جربتُ كثيرين.. معروض سمير آدم قبل عام حصلتُ منه على 10,000 ريال من وزير الداخلية... أمد الا.

كان علي ممتاز يتمايل نتيجة لعاهته، ويبصق ويتحدث بجدية تامة رغم حروفه المشوهة بسبب نطقه الأعوج ويردّد لازمته تلك.

قبل أعوام حصل ايضا على 20,000 ريال من تاجر ثري، أنفقها على عائلته حتى آخر هللة، لكن ذلك حصل دون معروض.

قبل أن نصل إلى منزل الأستاذ جبذني بقوة، أمسك ساعدي حتى شعرت بالألم، نظرت في عينيه فألفيته قويا صلبا خلف تلك العاهة، قال: أوه. أمد الا.. أسمع... سلفني ٦٠٠ ريال وأوصلني إلى سمير آدم لا أريد سواه.. معاريضه لا ترد.

تخلصتُ من يده بالقوة، واعتذرتُ فأنا لا أملك هذا المبلغ الكبير، كنت أودّ أن يغادر سيارتي فورا كي أعثر على راكب آخر سيدفع نقدا.

كتب الأستاذ لنا معروضا جيدا إلى وليّ العهد، قال علي بأنه سيرسله رفقة التقارير الطبية، وكان الاستاذ كريما فقد رفض ان يتقاضى من علي أي مبلغ

.

بعد أربعة أشهر سمعت أن علي ممتاز سيتزوج من بنت هارون الثلاثينية التي كانت ترجمه بقشر البرتقال وتلوح في عينيها أمارات البلاهة، لقد أرسل ولي العهد 15,000 ريال إلى علي وأمر بتحويل شؤونه إلى إدارة العناية التأهيلية.

قابلته في ساحة الحرم فباركتُ له وقلت: ألم أقل لك إن معروض الأستاذ جيد... بصق جهتي وتمايل وقال: أوه أمد الا .. لم أرسل ذلك المعروض، لقد استلفت ٦٠٠ ريال وذهبتُ إلى سمير آدم... سمير آدم معاريضه لا ترد.. أمد الا.

علي أبله في كل شيء سوى المال، لكن أحد السكارى من أبناء الأثرياء قتل أخاه السكير خطأ، وتقاضى علي وأمه دية جزيلة وصدقة إضافية مقابل موت ابنهم "الخمرجي" الذي لا يصلح لشيء.. أو لم يكن يصلح لشيء... أما الآن فقد أنقذ ذلك السكير تلك العائلة!

فرصة أخرى الجنون

فرصة أخرى للجنون

آخر ما يتوقعه الناس من رجل في نهاية عقده السادس هو الجنون!

في هذا السن ينبغي أن يكون الرجل في حالة ذهنية جيدة، فقد تجاوز كل الضغوط و التوقعات، ولم يبقى عليه إلا التمتع بما حقق، أو التأمل في خيبته بحكمة.
لهذا علي أن أجرّب الجنون.

علي أن أخوض هذه التجربة لأنها الحل الأفضل لحالتي، والمخرج الذي لا يتوقعه أحد.

غدا، حينما أغادر هذه الغرفة، سأقدم شخصيتي الجديدة بموهبة عالية؛ الآن علي أن أتمتع بحصر الفوائد التي سأجني من الجنون، قد يكون حافلا بالفوائد عكس ما كنت أتوقع طوال عقود.

ستتفاجأ زوجتي المنشغلة بتجارتها التافهة، قد تحزن، لكنّها ستعتاد، لقد حققت لها أمومتها من قبل، ونالت كل شيء؛ لهذا لن تحزن كثيرا، فماذا تبتغي الأنثى من زوجها أكثر من سبعة أبناء ومنزل ودكان صغير.

أما أبنائي فقد لا يعلمون بتاتا بجنوني، فهم موزعون على قارات العالم، وهانئون بأعمالهم وزوجاتهم وأبنائهم، قد لا يشكل جنوني أزمة لأحد إطلاقا.

لا أحد سوى البنوك وشركات التقسيط سيشعر بالخذلان لأنني جننت!

طبعا، لن يكفي راتبي التقاعدي -الذي سينهار- لإشباع جشعهم جميعا، فراتبي الذي سيصبح عنّينا لن يسمح القانون لأحد بأخذ أكثر من ثلثه.

إنني حقا أوفّر الكثير من خلال هذه التجربة.

حتى زملاء العمل لن يصابوا بنوبة قلبية عند سماع الخبر.

لن يعبأ العالم، ستمرّ الأيام على هذه المدينة رتيبة تماما، كما مرّت عليّ لعقود طويلة.

سيصبح لدي وقت أكبر لممارسة الحياة وفق رغبتي، فستسقط كل القيود، خصوصا هذه التي تقيّدني الآن وأشعر بها تلمّ أطرافي إلي، تمددني في كفن، حتى أصبحت غير قادر على حك أنفي.

لكن على أيّ شاكلة سيكون جنوني؟ فللجنون كما لكلّ شيء مميز مظاهر كثيرة، وشخصيات متعدّدة؛ لهذا لا أودّ أن أكون مجنونا بشخصية سيئة، لا تخوّله التمتع بالحياة.

لا أريد أن أكون مجنونا عنيفا، هذا مؤكّد؛ لكي لا ينتهي بي المطاف مقيّدا على سرير تعيس في مشفى نفسي، ولا أريد أن أكون مجنونا مثقّفا مهذارا، يزعم أنّه من اكتشف النظرية النسبية، و أنّه صديق حميم لسقراط، ذلك المجنون الذي يستمتع الناس بجنونه وطرافته، ويركلونه بعيدا أوان الاحتفال.

كما لا أريد أن أكون مجنونا متّسخا يهيم على وجهه في الطرقات.

يكفي أنْ أجن لأيام جنونا تاما، أعبث بكل شيء، وأقنع العالم، لأستمرّ بعد ذلك كرجل مصاب بلوثة في عقله؛ هذا ما سيمنحني الوقت والعقل الكافي للتمتع بحياتي.

ما سأوفره من راتبي العنّين سيكفي للتمتع؛ ربّما أغافل الجميع وأسافر، إنها فكرة رائعة أن يسافر رجل مجنون بمفرده.

لكن، ما الفائدة من كل هذا، حين لا أشعر شخصيا أنّني مجنون؟ إن آلامي النفسية والروحية لا تقلّ عن تلك المادية والاجتماعية، علي أن

أصل إلى موازنة من الجنون تضمن لي الراحة نفسيا، تضمن لي البعد عن كلّ منغّص، أريد أن أشعر بالجنون بكل مواهبه الرائعة، لا أتألّم لفقد أحد، لا أشك في شيء، ولا أتوجّس من شيء، وأحتفظ بمقدرتي على التمتع وتزجية الوقت بشكل سعيد.

إنني مريض بالوعي منذ عقود، آثار العقل المدمّرة تكبلني، لهذا ما زلت أميّز المسموح والممنوع، الحرام والحلال، الحسن والقبيح؛ كل هذه الأشياء مجتمعة لن تسمح لي بالوصول إلى السعادة إذا لم يكن جنوني كاملا.

لكن ماهو العقل؟ امممم أعتقد أنه مشاركة الآخرين شيئا ما! لهذا حين أجن لن أتشارك مع الآخرين شيئا، سأعيش مع نفسي، حينها سيبدأ العقل والوعي في الانهزام أمام رهبة الجنون.

حسنا، لكي لا أكون مجنونا سيّئا علي أن أتشارك مع الآخرين أشياء بسيطة، لا أودّ أن أتعرى أمام الناس مثلا، سأحتفظ بملابسي، وسأحرص على أن تكون مهندمة على الدوام.

كلا، بهذا لن أتخلص من الوعي البغيض والعقل المكبّل، سأجد نفسي بعد أيام في جحيم من الإحساس بالذنب والخجل الشديد، سأنزعج من حالة الجنون، وينتهي بي الأمر مجددا كهلا على بعد سنوات من التقاعد، محاصرا بالديون، وحيدا دون عائلة كما أشعر الآن، ومليئا بالتوجسات الروحية، والشكوك في جدوى الحياة.

لكي يكون الأمر مكتملا يجب أن أصارح نفسي بالجنون، أعيش هذه التجربة الأجمل في حياتي بما تستحقه من عمق، لقد جرّبت العقل والوعي لخمسين سنة، وها أنا أشقى بما جناه علي العقل؛ علي أن أجرب الجنون، وأختبر ما سيجنيه، أو يهبه.

لن يكون مخيبا للآمال قطعا قياسا إلى ماجناه العقل.

لهذا حين أخرج هذا الصباح من هذه الغرفة سأخوض التجربة بإصرار.

فالجنون هو الحل لكلّ شيء، مهما حاولت يا من تقنعني الآن بالتّعقّل لن تفلح، فما يهبه الجنون هو الإلهام والحرية والانطلاق، أمّا ما يهبه ذلك الشيء البغيض هو ما أوصلني إليه أخيرا...الجنون!

إذا كان الإغراق في العقل والوعي يوصلان إلى الجنون أخيرا، فتلك سخرية كبيرة، لماذا لم أجنّ منذ البدء؟!

إنّها مهزلة العقل البشري كما لم يصورها علي الوردي بعد أن نال إلهام الجنون.

لماذا أجد نفسي الآن مكبّلا بهذا الثوب الأبيض مقيّدا في هذا السرير؟ لماذا أجد نفسي الآن عاجزا، بعد أن أعملت العقل في كل شيء.

أنت، أيها العقل الأبيض، أيها العقل الملثم كطبيب، أنت أيها العاقل، صرير هذا الباب يزعجني، لقد مللتُ الاستلقاء على هذا السرير، مللتُ حقن الأعصاب التي تضخّ في جسدي المنهك، مللتُ هذا الرباط الذي يشدّ يدي كميّت.

أرجوك، ماذا تقول؟ من المؤكد أنني لست مجنونا إن كان هذا ما يهمك، لا تتظاهر كدكتور، أجبني هل تتوقّع أنت أيضا أنني مجنون؟

مهلا؛ سأفشي لك سرّا إذا لم تحقن هذه الإبرة في أعصابي.. السرّ؟.. أتسأل عن السرّ يا دكتور؟ حسنا، أنا لست مجنونا الآن، لكنني عزمت على الجنون حال مغادرتي هذا المشفى، قررت أن أكون مجنونا، لكن يا دكتور لن أفعل شيئا يقودني إلى هذا المكان مرة أخرى.

سأكون مجنونا حريصا على الانغماس في شؤونه، وسأكون سعيدا، أرجوك يا دكتور أطلق سراحي لأحك أنفي.

أرجوك أعطني فرصة أخرى للجنون.

حملة فلفال وبيال

حملة فلفال وببال

تكتسي قريتنا "أنوال" حلّة بهيجة من ألوان الخريف وألوان الحملات الانتخابية، تجوس مواكب التحسيس أركان القرية، كما تجول أنغام فاقو الحماسية في أرواح المحتفلين، إنها حلقة جديدة من صراع "ببال" و "فلفال" الأبدي.

قبل قرون طويلة انطلق هذا الصراع الأزلي حين قرّر بعض شيوخ القرية أن ببّال هو الخيار الصحيح والوحيد للنهوض بالقرية كعمدة حقيقي فهو يمتلك مظهرا مهيبا وبسطة في العلم والجسم كطالوت، بينما قرّر الشيوخ الآخرون على الجهة المقابلة من الشارع أن "فلفال" بتاريخه الأرستقراطي وعباراته الفرنكفونية و فاعليته هو العمدة الذي تحدثت عنه النبوة ولا يجوز أن ينافسه أحد.

فاز ببّال خمسا وستين مرة في انتخابات بلدية أنوال، وفاز فلفال ايضا خمسا وستين مرة؛ لهذا ستكون هذه المنافسة مصيرية لحسم مصير هذا الكلاسيكو التاريخي.

يسحّ الخريف غيومه الثقال بعد صيف جاف أهلك الحرث والضرع، فيقول شيخ ملهم إن هذا الخريف الغامر بسبب ترشح ببّال، لكن نفس العظة تكرّرت البارحة في مسجد الشارع المقابل، وعزت ذلك الفضل إلى ترشّح فلفال أيضا.

يبدو أن هذه النقطة الأخيرة أثارت بعض الشبان المهتمين بالعقيدة، وبعد اجتماع عاجل في مراح أهل اسويليمه قرروا أن المطر آية من آيات الله لا يهطل لترشّح أحد.

لكن أحدا لم يبرّر الأمر، فكلّ خريف غير انتخابي يكون جافا وقليل الأمطار، هذا ما يؤمن به مربوا الأبقار، لهذا يذكر أحدهم خريف ترشح ببّال وفلفال رقم مائة وستة وعشرون، في ذلك الخريف البهي دخلت (امتلئت) التامورت في يونيو و ولدت بقرته الوحيدة توأما في حالة نادرة.. لهذا هو متحمّس لفوز ببّال ويرجّح أن المطر السخي الآن يحتفل بفوزه مقدما.

على وهدة شمالية موشاة ببساط أخضر خريفي التأم شمل نفر من الرعاة العائدين، لقد كانت جذوة الخريف أكبر من تحيّزهم، بعد إخراج البقرات العالقة في المستنقع و تجفيف ملابسهم أوقدوا نارا، ذبحوا شاة، في انتظار المغيب كي يدخلوا الابقار تحت جنح الظلام خوفا من "العين" لأن مراقبة عيون السكان لرهج الأبقار وزخم غبار حركتها كفيل بإصابة بعضها بمرض "اطيار" أو قلة ألبانها على الاقل.

تعاونوا في إدخال البقر من المنفذ الوحيد في المستنقع الكبير صوب القرية، وحين دنت القطعان العائدة من تيه الصيف والجفاف تناهت إليهم أصوات الموسيقى، شعروا بعودتهم إلى المدنية، منذ أشهر وهؤلاء الرجال يشكلون رفقة و فريقا ضد عوامل الطبيعة لإنقاذ قطعانهم من قبضة الصيف، سأل أحدهم وهو يمسح رأسه ببقية دهن الشواء: ما هذه الموسيقى والأفراح؟ أجاب آخر: اح اسكي ذيك حملة فلفال يطول عمرو، تغضّن وجه آخر وقال: أبدي يخي ذيك حملة ببّال، حصلت مشادة بين الرجلين، وانساب القطيع في ظلام الليل إلى داخل القرية، كانت الأبقار تسير في هدوء وغفلة من رعاتها ودون ضجيج، تعالت من خلفهم صرخات الرعاة ونزاعاتهم، كانت الأبقار في هذه الأثناء قد تجمّعت حول مركز حملة فلفال المحاط بنباتات موسمية شهية، ويبدو أن تلك المصادفة أكدت بما لايدع مجالا للشك أن فلفال سينجح في هذه المعركة... لكنها ليست الانتخابات الاخيرة على كل حال، فغدا في موسم آخر يختار قطيع آخر محيط حملة ببّال!

الجاذبية لاتسمح بذلك

الجاذبية لا تسمح بذلك!

يصعب أن تدخل في حوار مع مصعب دون أن يتحدّث عن الزواج، لكن لن يطلب منك حلا لمشكلته التي لا يتحدّث عنها بشكل مباشر!

عرفته أثناء دورة تدريبية على قواعد بيانات Oracle ومن خلال تلك الدورة عرفتُ أطياف شتى من طائفة "المهاجرين" لم أصدم بحرارة إيمانهم وورعهم فهو متوقّع، قدرما صُدمت بنظرتهم للحياة، يمكن أن يكون أبرز مثل هو المدرب الأمريكي حسنين مصري الأصل وزوجته صومالية الأصل ابتهال، بعد هجرة طويلة إلى أمريكا وتجريب لكلّ أشكال الحياة، وبعد أن صار مدربا عالميا معتمدا لدى شركة أوراكل قرّر هو وزوجته أن يقسما العام نصفين، ستة أشهر للعمل في كاليفورنيا ومثلها في المدينة المنورة خاصة بالتعبد في الحرم النبوي الشريف!

بصفتي مستشار تدريب حاولت بجهد مع الدكتور حسنين كي يقدّم هذه الدورة، فلا أحد هنا يحمل مثل اعتماده، وقد رفض بشكل قاطع، بعد أسابيع من تملّقه أرشدني مهاجر آخر إلى أحد شيوخ المهاجرين، طلبت منه التوسط فقرّر الدكتور في اليوم التالي أن يمنحنا ساعة واحدة بعد صلاة الظهر؛ أحيانا يكون الحل تقليديا جدا حين تحاول فعل شيء غير تقليدي، ها هو الدكتور يدور في فلك شيخ مدني عظيم الجاذبية لا يتوسّط لديه بل يأمره.

لم يدخل في تفاصيل التعويض المالي، وحين أخبرته باسما أننا سندفع له 8000 ريال مقابل هذه الساعة شهريا على أن يمنحنا ساعة أخرى لنضاعف المبلغ، نظر إلي باسما وقال: هذا ليس أجري الحقيقي.. أتقاضى أكثر من ذلك في أمريكا مقابل ساعة تدريب معتمدة، لكن لا

تقلق لن أتقاضى منكم شيئا فأنا في مدينة الرسول أستحي أن أبيع العلم؛ لقد نفّذ الدورة دون أجر!

قبل بدء الساعة التدريبية بدقيقة يغلق كتبه السميكة التي تصاحبه دائما، يضع بلوغ المرام جانبا برفق، يدخل القامة كأنونيموس ويبدأ في تقديم ما يتقنه.

لم يتخلّص الدكتور من كونه عربيا أو مصريا فحسب، بل طمر كذلك الرجل الأمريكي داخله تحت طبقة صلبة من القناعات المثالية الغريبة.. حقيقة لا أعرف أي مجتمع أو دين أو قُمع خرسانة هو ذلك الذي مزج ذلك الخليط المتين، لكنها على كل حال خلطة صلبة لا شرقية ولا غربية.

الأمر لا يتعلّق بالمال لدي دائما رغم كوني رجل مبيعات، ما هالني من سلوك المهاجرين ليس هذا رغم ألقه، بل أكثر، يمكنني التعبير عن ذلك بمقدرتهم على العمل الدؤوب والرياضة والصلاة وطلب العلم وأعباء المنزل والخلود إلى النوم عند العاشرة مساء، ودعمهم لبعض وروح التضحية التي لا تتوقّف عند حدّ، فقد عرفتُ اثنين منهم يشتركان في رخصة إقامة واحدة يعمل كل منهما بها في شركة!

سيمون بلاك الملقب عثمان كان زعيم عصابة في هولندا، سورينامي الأصل، سلخ عمره في السجون والشوارع، وحين هاجر مسلما أصبح أهم قاعدة بيانات لتزويج المهاجرين والمهاجرات، يقوم بذلك بشكل يومي، ويرتّب الأمور عبر الإنترنت بشكل بارع، حين قابلته في استراحة المعهد عرض علي أعماله التي لا يجني منها المال، إنه أحد "مجاهدي العفّه" القلائل في هذا العالم؛ حدثته بشأن عائلة مصعب المهاجرة من سانت هيلانة إلى المدينة المنورة، والتي تسكن عباءة النسيان والخمول منذ عقدين، ثلاث بنات وأربعة شبان أصغر الجميع بلغ الثلاثين ولم يتزوّج!

لكنني لا أنسى أحد مثالب سيمون التي لا تغتفر، فقد زوّج فالنتينا ملكة جمال مولدوفا السابقة وهي في شهرها الأول بعد اعتناق الإسلام من شاب مهاجر كندي بدين من أصول يمنية! لقد قرأت عليه مرارا بيتي عمر بن أبي ربيعة:

أيها المنكح الثريا سهيلا عمْرك الله كيف يجتمعان
هي شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا ما استقل يمان!

لنتحدّث قليلا عن أبي عبد الله آيزِيا (ذو الكفل) فهو استثناء، لقد تمكّن من جمع كل متناقضات العالم، لم يسبق أن قابلت مهاجرا يجمع حرارة الإيمان ونزق موسيقى الريجي قبله! لقد كان فتى أمريكيا نصف زنجي – هندي أحمر نشأ أسفل الميسيسيبي، وجهه هارب من أغنية بلوز وصوته رعشة ريجي، أما ورعه فهو مقتبس من الرسالة التدمرية لابن تيمية!

كان آيزيا مطربا ناشئا حين تخطّفه الدعاة على باب مقهى ريفي، ثم أصبح الآن سلَفيا يقرأ القرآن كأنه موقّع على آلة الكلارينيت، أَمّنا مرة في المصلى فقرأ بلحن شجي، فخاصمه بعضهم واحتجّوا بحديث "اقرؤوا القرآن بلحون العرب" وما زال يقرأ كما كان يترنم، آيزيا حين تعزمه على سيجارة يدخّنها، وحين تسأله عن ذكرياته يلتاع كبده عند ذكر الأبنوس والخلاس ويردّد كلمته الأثيرة: أووف إنها جميلة جدا، لكن إيمانه العميق هو الكوكب الأكبر الذي ينظم كلّ ذلك التناقض.

مصعب يفكّر في الزواج في عقله الباطن، أما عقله المشرّح أمامي فهو مشغول بالفيزياء، يتحدّث عن الجاذبية كأن نيوتن لم يشف فيها الغليل،

سألني مرة هل تعتقد أن هنالك مقدرة على نقل شخص من مكان إلى آخر أو التنقّل إليه دون الحاجة إلى وسائط؟ بعد أن قلت له إن هذا السؤال قديم بالنسبة إلى اهتمامه، أكّد أن هذا ممكن، لكنه لم يتحدّث عن نيته في نقل شخص معيّن؛ أغرب ما في الأمر أن مصعب لا يحمل أي ذكريات عن سانت هيلانة ولا أقاربه هناك، فهو مدني دون جذور، وهيلاني دون ذاكرة، قابلت إخوته الأربعة، بدا لي أنّ أخوية العزاب تلك يحمل كلّ أفرادها ولعا بالفيزياء!

إن قيما مشتركة تصنع مجتمعا، هكذا كنت أتخيّل، لكن أولئك المهاجرين يشتركون كثيرا من القيم ويعجزون عن تشكيل مجتمع، رغم مفاهيمهم اللامادية فهم في الأخير يرتبطون برابط مادي، أو نفعي على مستوى ما، ذلك الرابط الذي يُقيم كل مساء حفل زواج بينهم ويستثني عائلة مصعب الهيلانية ببناتها الثلاث وأولادها الأربعة؛ حاولت دمج مصعب معهم، فهم ظاهرا مناسبون لبعضهم، لكن أشياء لا أعرفها تشكل عائقا أمام دخول عائلة مصعب في هذا المدار!

هل عائلة مصعب تحمل لعنة من لعنات الهنود الحمر التي لا تنتهي، هل هي عائلة أم نزلاء زنزانة أبدية؟ ما زلت حتى هذه الساعة أتسقّط أخبار مصعب وعائلته، وآخر طرائفه أنه ذهب إلى البرازيل في مهمة عمل، فرحتُ كثيرا، سيكون لأول مرة قريبا من سانت هيلانة، وربما يجد تطبيقا عمليا لنقل الأشخاص دون وسائط هناك، فالجاذبية في البرازيل تسمح بذلك، لكن خيبة أمل كبرى ألقاها علي حين أخبرني أنه عاد من البرازيل لأن كأس العالم سيبدأ وسيصبح الوضع غير محتمل!

لن يجد مصعب حلا في البرازيل مادام يناصب ديانتها الرسمية كل هذا العداء.

مختصر تاريخ التوابع

مختصر تاريخ التوابع

لآلاف السنين جابت تلك المخلوقات أرجاء الكوكب بحثا عن سيد تضع نفسها في خدمته، تريد سيدا لا يتبدّل حاله!

صفق الـ Minions لهتلر في الخفاء حين جدع أنف باريس، أخبتو بمجده، وجهروا بمدح فرنسا حين استعادت حريتها في حرب أولاد (اصبيصب)!

عندما جاء المختار ولد داداه أسقط في يد التوابع! هذا ليس سيدا نموذجيا، نريد آخر أكثر جبروتا، أقوى شكيمة، سكتت على مضض.

ذاب التوابع في سنين الجدب، وحرب الصحراء، وحرب (الصنادرة) الداخلية، حتى برز ذلك السيّد النموذجي.

رجل قصير كنابليون، دقيق الملامح كهتلر، توحي قسماته بالنزق والبطش، ويمتلك صمتا مهيبا يمكن تفسيره على كل وجه؛ خرجت التوابع من جحورها، ونسلت من تيهها، قادمة من ضياع "اظهر تيشيت" و جدب "أفلّ"، وعطش "العاكر"، وصمت "تكانت"، وتيبّس "شمامة"، وإملاق الواحات المتحجرة في "آدرار"، وخواء "تيرس" وحساسية (إيكيدي) الصدرية؛ خرجت من كل الأمكنة تلهج بخطاب النعمة التاريخي، وحرياته الثلاث، وميلاد السيد الأبدي.

في تلك الأثناء كان بعض الـ Minions قد تسلحوا بقشرة معرفية هشة، وعاد بعضهم للتو من ابتعاث خارجي، واستفاد قسم آخر من بياتهم الشتوي في مراكز الثقافة الأجنبية بالعاصمة.

حدثت انفراجة في حياتهم، وحين امتلأ بيت الديكتاتور بجثامينهم الصفراء، لمعت فكرة عبقرية في عالم التوابع، أسسوا بيوت أغلبية كثيرة لاستيعاب عدد التوابع المتزايد.

كانوا في تلك الفترة شديدة التأثير تماما كالزومبي، حين يعض أي منهم أحدا من أبناء الشعب "تشخم" عينه ويتحول إلى!Minion

زادت أعدادهم، وكثرت بيوت أغلبيتهم، وللأسف تحوّل كثير من أبناء الشعب المغفلين إلى توابع دون تعرضهم لعض الـ Minions بل كانت في تلك الأيام عضّة بسيطة من الدهر كافية للتحول.

كان الزعيم يشجّع تحول المدنيين إلى زومبي، ويحوّل الجنود قسرا إلى عظاءات، خشي بعض صغار الضباط من ذلك المصير المشؤوم فوجهوا ضربة مدوية للزعيم.

لقد كان حدثا مزلزلا بحق، ليس للتوابع وحدهم، بل للسّيد أيضا، فهو أوشك على التحول إلى Minion لنفسه، أدركت العظاءات الكبيرة في الجيش عمق الهزة، فوجهت ضربتها القاضية بعد سنتين.

شعرت التوابع بالارتباك، لم يكن في بالهم أن يرحل السيد، والآن.. أصبح هنالك أسياد كثر! ما العمل، توسلوا إلى آلهة (اتهيدين) و(بنجه) أن تبعث لهم سيدا لا يموت.

بعد سنوات برز الجنرال المتمرّد، وعرفوا آية ملكه البراقة على كتفه، فاشرأبت أعناقهم القصيرة، وفتحت بيوت جديدة للأغلبية، كتبت قصائد بكل لغات العالم، ووضعت أوزان جديدة بكماء بلا كلمات.. أوزان للشقلبة فحسب، تحسبا لزوال النعم.

جاء بعض التوابع الجدد بأفكار خلابة، شبابٌ متعلمون يمتلكون خبرة الأولين والآخرين في امتصاص أي امتعاض، إنهم سبونج بوب الجنرال المتمرد الضاحك أبدا، الضاحك في عمق أزمات الصرف الصحي والمجاعة والعطش والمخدرات والتصفيات.

كافأ بعضهم بتعيينه في مجلس أعلى للـ Minions الشباب، وبعضهم وزراء ومدراء وقناصلة، كان أول من كافأ التوابع الشباب بهذا الكرم، لكن بعضا من عتاتهم كتب الله عليه التيه أربعين سنة في مجدبة أخرى، دون منحة، أو تكريم.

اليوم يقف التوابع على مفترق طرق "بانا بلاه" في حيرة من أمرهم، السيد على بعد غفوة من التقاعد، ولا وعد يلوح في الأفق!

هذه هي أزمتهم الحقيقية، وليست أزمته، فهو في قرارة نفسه يبحث عن مخرج فقط، أما هم فمأزقهم يتجذّر، قد يفيقون غدا على أسياد كثيرين، وذلك موقف محرج جرّبوه من قبل، قد يتبخر حلمهم في الخنوع الأبدي، لذلك لن ينام أحد منهم في هذا الزمان، سينتظرون تلك العلامات، والآية التي تلوح دائما على كتف السيد الجديد.

الحاسة الثامنة

الحاسة الثامنة

المرأة تشعر بالنهاية قبل الأوان، لقد حصلت على تلك الحاسة الثامنة جراء معاناتها آلاف السنين مع الرجل؛ لذلك انزوت سيدة القصر الرمادي في جناحها وأخذت تستهلك جوالاتها الخمسة بكامل طاقتها، وفي مقدمة المبنى الخاص لرئيس الجمهورية كان يقف ذلك الرجل الذي هدّته السنين والأزمة الأخيرة في نهاية ممر رخامي طويل متسائلا: لماذا لم يحضر "لمرابط" حتى هذه اللحظة؟

على بعد مربعات سكنية من قصر الرئاسة في منزل قائد الأركان اجتمع المتآمرون؛ حفنة من صغار الضباط يرشدون الرجال المدنيين في ممر مضطرب، مجلس كبير يقف في آخره الجنرال رقم واحد في هندام هجين، قميص مغربي مشجّر، وبنطال عسكري مرقّط، مستندا على كرسي مذهّب ويؤرجح جسمه كلاعب جولف قرّر التسديد إلى حفرة بعيدة؛ إلى يمينه يجلس الجنرال رقم 2 يتأمل أوراقا متداخلة، وقد تورّد فكّه السّفلي بفعل الأزمة والحلاقة اليومية لذقنه الصلب.

يدخل الرجال المدنيون، فيتّجه الجنرال رقم واحد إلى غرفة صغيرة، ويسير من خلفه الرجال الثلاثة والجنرال الثاني.

في قصر الرئاسة الرمادي ينسدل "لمرابط " المزمّل بعمامة سوداء وقفطان مغربي أحمر فوق دراعته البيضاء في دهليز ضيّق، يخطو بسرعة تشاغب عقوده السبعة، ويعانق الرئيس المضطرب؛ إنه عرابه الروحي، وقد كان خلال الأشهر المنصرمة مصدر اطمئنان وبركة الرئيس الذي يعوّل على مدد الأقطاب أكثر من تعويله على رأي المستشارين.

- عليك أن تكون حازما، فهؤلاء الجنرالات لن يقبلوا الحلّ الوسط، قبل انتصاف هذا الشهر سيعزلونك، فاستخدم كل صلاحياتك

وأرحنا منهم!
يتفصّد الرئيس عرقا، يقرأ عزم "لمرابط" ويمدّ إليه طرفا حسيرا، ثم يطلق زفرة كليمة تتردّد في الجناح الرخامي، فتسمعها السيدة الأولى أثناء مكالماتها المتعددة فتلوي فكّها باستياء!

في منزل الجنرال يشعل الرجال سجائر العزم، ويقول الرقم واحد:
-هل أصبحت لدينا الأغلبية؟ موجّها كلامه لأحد المدنيين الثلاثة، فيرد الرجل الخمسيني ذو الوجه الطفولي: نعم... الأمر محسوم عند انعقاد الجلسة سيتم عزله... هذا مؤكّد.

-لقد خدعتنا من قبل... أنت من رشّح هذا المرابط الذي يحاول أن يكون رئيسا!

يرتبك المدني، ويحمحم الرجال من خلفه، فيتدخل الجنرال رقم 2 أنا أفضل أن نقوم بثورة شعبية، ونملأ الشوارع بالناس، عندئذ نتدخل لتلبية مطالب الشعب!

تلوح بسمة على فم الجنرال رقم واحد لأول مرة منذ بدء هذه الأزمة قبل شهر بسبب أمر الرئيس بتحويل أوامر الصرف الرئاسية من مكتب الجنرال إلى مكتبه الخاص، وأمره كذلك بعدم عرض المراسيم الرئاسية على قائد أركانه قبل إذاعتها.

لقد لامس مقترح الجنرال رقم 2 روح الجنرال رقم واحد، فأن تحرم عسكريا من إذاعة بيان انقلابي، وتجعل عزل الرئيس إجراء دستوريا يقوم به أوباش من النواب الجهلة، فذلك مما ينغّص فرح وكبرياء الجنرالات... وإنْ حقّق أحلامهم.

قال الرقم واحد: ركزوا على خطة الثورة فهي أكثر فاعلية.

هناك في القصر الرئاسي وعد الرئيس عرابه باتخاذ إجراء حازم بحق الجنرالات، وانطلق "لمرابط" القلِق وقد تبدى له جليا أن صاحبه مغلوب على إرادته، بفعل مئات السنين من التوكّل على الكرامات، إنه شيء يدركه الشيوخ بفعل خبرتهم مع الدراويش، وقد اكتسبوا حاستهم الثامنة تلك جراء ذلك.

قرر المتآمرون أن ينطلق الجنرال رقم 2 من وقته إلى مناطقه الشرقية لاختلاق حادثة تثير ثورة في الأعماق، هكذا سيكون الأمر طبيعيا؛ لن يكون أمرا صعبا أن تعثر على قبيلتين ترغب إحداهما في الفتك بالأخرى، أو مزارعين جوعى يرغبون في حرق العالم، أو حتى نساء يائسات يرغبن في زعزعة الملكوت.

انطلق المدنيون أيضا إلى الأحياء الشعبية، يوزعون الوعد، ويزرعون رغبة التمرد في الشعب العبد، كانت تلك المهمة يسيرة أيضا، فأن تحرّض عبدا على الثورة تحت حماية من يرهبهم من أسياده، فتلك الغنيمة الباردة للشعب الذي لم ينتفض منذ عبد الله ابن ياسين!

مضت ثلاثة أيام سريعة على الجنرال رقم واحد، وكسلى على الرئيس الخامل، وقلقة منذرة بالسوء على السيدة الأولى الحزينة وهواتفها الخمسة، وقد صارت سرعتها وكسلها وقلقها أمورا لا تشغل بال "لمرابط" الذي غسل يديه من مريده المتردّد.

عند منتصف الليل وبحضور "لمرابط" المنشغل بأوراده، ونفر قليل من الخاصة، تبين للرئيس أنه معزول لامحالة عند اجتماع البرلمان، فشرع في كتابة بيانه الأخطر.

بقلم أحمر وعلى ورق أبيض مخطط عزل الجنرالَ رقم واحد والجنرال الثاني، بل رأى أيضا أن الجنرال رقم ثلاثة الذي لا يشكّل خطرا على

أحد يجب عزله كذلك، وأقسم أنه لن يعيّن جنرالا ما بقي في هذا القصر.

حضر رئيس الإذاعة سريع الخطو، وأخذ النسخة الأصلية من القرار المخطوط وأطلق ساقيه للريح، يحمل توجيهات الرئيس بإذاعة القرار في نشرة الثالثة فجرا، إنه وقت رائع لانقلاب كما كان دائما.

أيضا انطلق عقيدٌ من خاصة الرئيس يحمل البشرى إلى عقداء مهمشين بتعيينهم في مناصب الجنرالات، عند تقاطع الطرق أمام الرئاسة تحرّكت داخل نفسه النخوة العسكرية، فأدار سيارته باتجاه منزل الجنرال رقم واحد، تلك أيضا حاسة صغار الضباط الثامنة، وقد اكتسبوها جراء أخذ العبرة من الانقلابات الفاشلة.

لم يُسقط في يد الجنرال، فقد كان يعلم أن البرلمان لن يجتمع، وأن موعد الثورة الذي سيحين بعد ثلاثة أيام قد لا يحلّ أبدا، لذلك كان يجهز خطته المفضلة، ارتدى ملابسه، وانطلق في سيارة جيب مكشوف، وأطلق النفير في بني عسكر، من شمال نواكشوط إلى شرقه، وتداعى إليه الرجال الشعث، وصهلت عليه مركباتهم الثقيلة.

أثناء خلوة الرئيس بعد توديع ضيوفه تم اعتقاله، وتمت السيطرة على الإذاعة بعد بيان واحد، واستيقظ الناس على دولة جديدة.

... ليست جديدة بالمرة، فالدولة تولد مرة واحدة، ثم تجدّد جلدها كأفعى مجلجلة، والناس يدركون ذلك بحاستهم الثامنة الخاصة، والتي تشكلت نتيجة الانقلابات الثمانية والتعايش مع الدولة الأفعى.

كوبري بائعة القورو

كوبري بائعة القورو

ما الذي يجمع رؤوس المندي وسمك الهامور و مبشور الكباب ومنتو عابد سوى معدة حمضية خارقة!

إنه شارع قربان، إرث سوق الخان القديم ومائدة الثقافات المدنية!

في سوق الأكلات الشعبية ذاك يحنّط مختصر تاريخ المعدة الحجازية، ويقدم فحواه كقيمة ثقافية بسماحة وبسعر منافس؛ قليلة هي الأماكن المتحفية الآن، أما موائد الحداثة فكثير.

كانت كوبرا فتاة إفريقية تعدو كفهد على ضفاف نهر استوائي...قبل عقود آثمة حدث ذلك؛ أصبحت الآن امرأة طاعنة في الدهون تسند ظهرها دون بكاء إلى حائط مطعم التركستاتي وتمدد بضاعتها المنشّطة... أصبحت تدعى كوبري!

في أي زاوية يختبئ الحظ العاثر؟ وفي أي مفترق يختفي السعد! كوبري لا يشغلها ذاك، بل مساومة اليمنيين الذين فرغوا للتو من تناول رؤوس المندي:

- هذه الحبة خضراء... هل لديك قطع مُلوّحة... نريد حبة تكشط بالسكين ليظهر القورو يعصر الصفرة من الخضرة!

تلك مواصفات حبتها التي تحتفظ بها لنفسها...لطريق العودة؛ هاتِ ما في هذا الكيس الأسود يا كوبري.

لم تزل كوبرا تتحدر في حياتها من نهر دافق في رحم غابة إفريقية إلى يوم مشمس في سوق قربان، ومن زوج يلف عمامة خضراء إلى أزواج ترحلهم "الجوازات" على الدوام، ومن بطن مشدود برشاقة كغزال إلى جوقة من الأبناء البدينين .
ربما لا تخطّط للثراء، ربما تبذل جهدا أكبر الآن في سحب جسدها الضخم من حارة الجبور إلى سوق قربان مقابل عائد أقل.

ربما أيضا لو عادت إلى نهرها لن تحتمل الحياة هناك... ستتعرق ويقرصها الناموس وتصاب بالارتكاريا حتى تموت.

لأي شيء تجمع كوبري المال؟

أبناؤها في غاية الصحة، أزواجها حين يرحلون يرزقها الله خيرا منهم، ولكن لأي شيء تجمع كوبري المال؟!

من المؤكد أن لها غاية، أو أن ظرفا دفعها لإدمان هذا الأمر، تماما كأي شاب حديث عهد بالتخرج.

قد توجد للعمل قيمة توازي وجود الإنسان، إن قيام كوبري بالعمل الدؤوب كل ظهيرة يؤكد لها أنها كوبرا على الأقل... يقدم لها ما تعلمه هي ولا يمكن لأحد يجلس في حديقته أن يقيم حقيقته.

هي تعيش وتبيع وتربي أبناءها وتعثر على الأزواج باستمرار، وهذا ما لم يفعله الإسكندر المقدوني.

هي أيضا تجمع الدهون دون خوف، وتأكل طعاما طازجا، وكل خيرات السوق وسمومه في متناولها، وتستخدم أفضل حبات القورو الطازجة وهذا ما لا تجرؤ على فعله ملكة انكلترا.

علام أسأل عن أموالها؟ إن قيمة ما تعمله كوبرا بادية للعيان فهي لا تدخر شيئاً لزمن قد لا يأتي، أو زوج قد لا يعود، أو نهر ربما قد توقف منذ عقود .

إن كوبري لا تؤجل شيئا!

وهي تعلم أنها مزاج السوق... أيقونة طاقة الأيام المتراخية... هي كوبري السوق.